رسالة إلى محمود درويش

« عن الجديد »

بقلم سميح القاسم

عزيزي محمود ـ القاهرة ،

الحرج قائم ، سواء كتبت اليك ام لم اكتب . وحتى لو كانت لدي طائرة فانتوم فانني لا استطيع تحميلها هذه الرسالة اليك ، فالخوازيق الجوية المتربصة على ضفة القناة الغربية جعلت بريد الفانتوم في خطر شديد .. ومن هنا فان « الجديد » سليلة الحمام الزاجل خير رسول اليك ، هناك في مصر الشجاعة واقعا واسطورة، ارضا وبشرا ، ماضيا وحاضرا ..

وبعد ،

لا اريد تقريعك على فعل ماض اصبح امرا واقعا، فمن اين لنا القدرة على اعادة الرصاصة المنطلقة الى فوهتها الام ! .

لكنني اريد مجاهرتك ببعض الخواطر التي اثارها في بيانك العاطفي المذاع من موقعك الجديد وموقفك القديم .

قلت على ما اذكر ، ان العمل اصبح مستحيلا او لا يطاق ، هناك (اي هنا) .. ثم وجهت تحية حارة الى الشيوعيين الذين يشنون نضالا بطوليا وظهرهم الى الحائط .. فكيف يمكن تفسير القول باستحالة العمل او كونه لا يطاق في آن وجوده وبصورة «بطولية» ؟

لسنا بحاجة الى من يشرح لنا ظروف العمل الادبي والسياسي للشيوعيين ، لا سيما العرب منهم ، في اسرائيل .. واعتقد ان الحركات الثورية تقرر بصورة جماعية في شؤون العمل واستحالته وتغيير مواقعه .. والا فان المفهوم الحقيقي والعلمي للعمل الثوري يتميع ويفقد اهم خواصه ، في حالة الانفراد باتخاذ القرارات .. ثم ان الموقع هو جزء من الموقف ، ولا مجال هنا للتجزئة ومحاولة تطويع القوانين العلمية الراسخة حتى تتلاءم مع السلوك الذاتي .. اما هذه ، واما ذاك !

ونعود الى عملنا هنا ..

منذ قيام اسرائيل ، ومبارد العنصرية تنحت في لحم البقية الباقية من العرب الفلسطينيين في وطن آبائهم واجدادهم .. ولكن القوى الوطنية والدمقراطية وفي طليعتها الشيوعيون ، ادركت ما ترمي اليه السلطات الصهيونية من وراء الاضطهاد والقمع والارهاب ... ادركت ان الشعار الاول والرئيسي الذي رفعته الحركة الصهيونية هو : المزيد من الاراضي ، والاقل من العرب ..

ومن ابرز المخططات التي شهدناها في السنوات الاخيرة لترحيل التسباب العرب ، كان « مخطط كندا »، واقصد بذلك تشجيع الشباب العرب على الهجرة الى كندا .. وآنذاك وقفنا جميعا في وجه هذه المؤامرة المرعبة ..

ثم .. من من زملائك ورفاقك لا يعلك قيوده كل يوم كل ساعة كل دقيقة وكل ثانية ؟ .. من منهم لم تصادر قصائده ؟ من منهم لم يعرف اكثر من سجن في وطنه ؟ من منهم لا يتمزق وينصهر ليعود اشد من اوزوريس ؟

ولعل الجنود المجهولين منا ، والذين عانوا فوق ما عانيناه ونعانيه ، لعلهم اكثر منا بكثير .. تلتقي بهم فتلتقي بالصمود نفسه والرسوخ نفسه والحياة نفسها .. تستمد منهم ويستمدون منك ، وفي هذا تجد المبرر للحياة والبقاء والمنازلة !

ان صمود جماهيرنا ، وصمود الفيتناميين ، وصمود جميع الشعوب المقهورة المغلوبة على امرها في مرحلة ما من مراحل تاريخها ، ليس ضربا من المازوكية .. انه الصعود الواعي الى الجلجلة ، في سبيل الخلاص للسواد الاعظم والاجيال المقبلة .. ومن كان منا يؤمن بهذا الشعب فليحمل صليبه ، واذا كان هذا الشعب قد قرر البقاء على صدورهم ، فعلى حاملي الصلبان الا يتزحزحوا .. واذا كان في تاريخ الشعراء والادباء بعض اصحاب الصلبان الذين غيروا مواقعهم ، مثل ناظم حكمت وبرتولد بريخت ، فذلك لان اعداءهم ارادوا تجريدهم حتى من الصليب ذاته .. اما نحن فان صليبنا الكبير ما زال في ايدينا ، وانت تشهد في بيانك ، بأن النضال «بطولي» .

قلت ان وطننا لم يعد جبلا وسهلا ، بل قضية .. ولا استطيع الا ان اختلف معك في هذا .. فالوطن الميتافيزيكي ، الوطن الفكرة ، او القضية ، الوطن الذي ليس سهلا ولا جبلا هو وطن الحركة الصهيونية !! وطننا نحن ، سهل وجبل وقضية في الوقت نفسه .. وطننا فلاحون يعتدى عليهم في ارضهم ، تجار يعتدى عليهم في متاجرهم ، بشر يتكلمون ويأكلون ويفرحون ويحزنون وينزفون دما في مدنهم وقراهم .. في غزة وحيفا والخليل والرامة والجديدة وحتى في البروة التي لم يبق منها سوى اطلال كنيستها .. واهلها !

في ايام المغول والتتار كان المحتلون يجهلون علم النفس .. كانوا يبيدون ضحاياهم ابادة جسدية .. اما اليوم ، فان حضارة القرن العشرين علمت المحتلين اساليب الابادة الفكرية ومناهج التدمير النفسي .. الى جانب التصفية الجسدية .

وكثيرا ما يلجأ المضطهدون ـ بكسر الهاء ـ المودرن، الى القمع النفسي لدفع ضحاياهم الى الهرب في سبيل خلاص ذاتي موهوم .. انهم يمارسون الارهاب السيكولوجي ليخلقوا في نفوس مضطهديهم ـ بفتح الهاء ـ ما يسمى بالبارانويا ، وهو مرض الخوف والملاحقة ، او البسيخوفرينيا وهو ضرب من الهلوسة وفقدان السيطرة على الذات .. فهل نسمح لحكام اسرائيل بان يجعلوا منا ارانب لتجاربهم ؟

لا اشك للحظة في حبك لشعبك ووطنك .. ولا اشك للحظة في حبك لرفاقك ومكتبك العتيق الصابر بين مكاتبهم العتيقة الصابرة ، حيث العمل اليومي المتوتر والمرهق ، ولكنني اشك في ان خطوتك كانت امرا لا مفر منه .. واخيرا ، اليك هذا النبأ الشخصي .. ديوانك الذي تركته في ذمتنا سيصدر قريبا .. سيصدر في الناصرة .. ولن ارسل اليك نسختك مع الصليب الاحمر الدولي .. سأحفظها لك هنا حتى تعود لرفاقك .. وستعود!